تفسير ابن كثير

يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك با المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدعو معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه خالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال { يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين } وقال تعالى : { وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين } وقال تعالى : { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم } وقال تعالى : { إن إبراهيم كان أمة قانتا حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين } ولهذا وأمثاله قال تعالى : { ومن يرغب عن ملة إبراهيم } عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها { إلا من سفه نفسه } ؟ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه ا خليلا وهو في الاخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طريق الضلالة والغي فأي سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟ كما قال تعالى : { إن الشرك لظلم عظيم } قال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الاية في اليهود أحدثوا طريقا ليست من عند ا وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول ا تعالى : { ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا وا ولي المؤمنين } .

وقوله تعالى { إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين } أي أمره ا بالإخلاص والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرا وقوله { ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب } أي وصى بهذه الملة وهي الاسلام أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله { أسلمت لرب العالمين } لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى : { وجعلها كلمة باقية في عقبه } وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيمن ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح والظاهر وا أعلم أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة لأن البشارة وقعت بهما في قوله { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } وقد قرئ بنصب

يعقوب ههنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة وأيضا فقد قال ا تعالى في سورة العنكبوت : { ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب } الاية وقال في الاية الأخرى { ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة } وهذا يقضي أنه وجد في حياته وأيضا فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول ا أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام قلت : ثم أي ؟ قال بيت المقدس قلت : كم بينهما ؟ قال أربعون سنة الحديث فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس ـ وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه ـ وبين إبراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين وا أعلم وأيضا فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين وقوله { يا بني إن ا اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم ا الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه وقد أجرى ا الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح [إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها] لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال ا تعالى : { فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى }